

تَاقَتْ نَفْسِي إِلَى جُلْسَةٍ تَأْمِلِيَّةٍ عَلَى شَاطِئِ الْخَلِيجِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي تُعَايِنُهُ دُوَلَةُ الْإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَحَدَّةِ بِمَحَبَّةٍ وَحَنَانٍ ، وَتَغْفُوْبَينَ أَخْضَانِهِ مِدِينَةُ (دُبَي) بِطَمَانِيَّةٍ وَسَكِينَةٍ وَأَمَانٍ ، أَخْذَتْنِي قَدْمَايِ إِلَى رُكْنِ هَادِئٍ عَلَى الشَّاطِئِ حِينُ الرِّمَالُ الدَّافِئُ الَّتِي أَحْبَبْتُهَا عَلَى إِمْتَادٍ أَرْبَعَةٍ عُقُودٍ وَنَيْفٍ ، وَجَمَعَتْنِي بِهَا قِصَّةً عِشْقٍ رَسَمَتْهُ لَحْنًا شَجَبًا تَجَذَّرَ فِي أَعْمَاقِي لَوْحَةَ حُبٍ ، وَإِطْلَالَةَ شَوَّقٍ أَشَاهَدُهَا عَلَى صَفَّةِ الْخَلِيجِ لَنْ يُدْرِكَهَا التِّسْيَانُ فَهِيَ بَوَابَةُ الْفَلَبِ ، امْتَدَتْ عَيْنَايِ لِلْأَقْفَقِ الْبَعِيدِ وَأَنَا أَنْجِي أَمْوَاجَ الْبَحْرِ فِي ارْتِفَاعِهَا وَانْخِفَاضِهَا ، وَتَسْنِجُ مَعَهُ أَهْزُوجَةً الصَّفَاءِ الْأَبْدِيِّ ، وَلَوْحَةَ النَّقَاءِ السَّرْمَدِيِّ ، لِتَعُودَ بِي الْذِكْرِي إِلَى تِلْكَ الْلَّهْظَةِ الَّتِي حَطَّتْ بِهَا الطَّائِرَةُ فِي مَطَارِ دُبَيِ الْدُّولَيِّ مَسَاءَ الثَّامِنِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ أَغْسُطْسُ عَامَ الْأَفَّ وَتَسْعِمَةٍ وَتَمَانِينَ ، تَنَفَّسَتْ هَوَاءَ مِدِينَةِ (دُبَي) لَيْلًا لِلْمَرَّةِ الْأُولَى ؛ الْمَدِينَةِ بِاِبْتِسَامَةٍ وَاسِعَةٍ اِرْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِي فَرْحَةً عَامِرَةً ، وَتَعْمَقَتْ فِي قَلْبِي الْفَأَا وَسَعَادَةً غَامِرَةً ، وَأَنَا أَنْزَلُ سُلْطَنَ الطَّائِرَةِ تَأْمَلُتْ صَفَّةَ السَّمَاءِ فِي تِلْكَ الْلَّيْلَةِ الصَّيْفِيَّةِ الصَّافِيَّةِ ، وَكَوَاكِبَهَا مُنْيِرَةً ، إِنَّهُ شَلَالُ نُورِرَبَانِي يُعَانِقُ الْمَدِينَةَ ، يَتَدَفَّقُ نَضَارَةً وَبَهَاءً ، وَعَذْوَبَةً وَصَفَاءً ، وَيَمْنُحُ الْمَدِينَةَ دَنَارًا ذَهَبِيًّا ، وَيُعَانِقُ بِمَحَبَّةٍ مَصَابِيحَ الْمَدِينَةِ فِي لَوْحَةِ صَافِيَّةِ نَقَّةٍ ، تَشَتَّدُ بِي الْذِكْرِي وَأَنَا أَرْنُو لِأَمْوَاجِ الْخَلِيجِ ، حِينَما شَاهَدْتُ الْمَدِينَةَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، هَتَّفْتُ فِي نَفْسِي "لِلَّهِ دَرَكٌ يَا دُبَي!" وَلَحَنَ الْمَجَدِ وَالْإِباءِ ، يَخْتَلِطُ صَوْتُ الْمَوْجِ بِنَسَمَاتِ حَالَمَةِ ، تُسَامِرُنِي ذِكْرِي يَوْمِيَ الْأَوَّلِ فِي دُبَيِ حِينَهَا رَاقَفَتْ هُدوَءَ الْلَّيْلِ فِي هَرَبِهِ الْآخِيرِ ، سَأَلْتُ سَائِقَ الْمَرْكَبَةِ الَّتِي أَفْلَتْنِي مِنْ الْمَطَارِ إِلَى أَحَدِ فَنَادِقِ دُبَيِّ عَنِ الْأَمَاكِنِ الَّتِي نَعْبُرُهَا لَيْلًا ، أَجَبْتُ : نَعَمْ ، اسْتَطَرَدَ قَائِلًا بِأَسْلُوبِهِ الْخَاصِ : أَنَا سَائِقٌ مُنْذُ عَشَرَ سَنَوْنَاتٍ تَقْرِيبًا ، إِنَّهُ تَطَوُّرٌ مُتَوَاصِلٌ ، وَالْقَدْرُ حَلِيفَكَ ، سَوْفَ تَعِيشُ حَيَاةً مُسْتَقْرَةً يَكْتُنُهَا الْأَمْنُ وَالْأَمَانُ ، وَالشُّعُورُ بِجَمَالِ الْحَيَاةِ بِصُورِهَا وَأَسْكَالِهَا كَافَةً ، وَأَعْرَاقُ مُتَبَايِنَةٍ ؛ يَنْعَمُونَ بِالْخَيْرَاتِ وَالْمَسَرَّاتِ ، تَجْمَعُهُمْ قِيمُ الْمَحَبَّةِ وَالنَّسَامِحَةِ وَالْأَخِيرِ وَالنَّقَاءِ . أَجَبْتُهُ وَأَنَا أَشْعُرُ بِغُبْطَةِ وَسَعَادَةٍ : إِنَّ هَذِهِ الْقِيمَ هِيَ جَوْهُرُ الْأَدِيَانِ الَّتِي تَسْمُو بِالْإِنْسَانِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ عَلَى وَجْهِ كَوْكِبِنَا الْأَرْضِيِّ ، وَتَأْخُذُنَا نَحْوَ التَّالُفِ وَإِعْمَارِ الْأَرْضِ وَالْبَنِيَّةِ الْحَضَارِيِّ الَّذِي تَنْتَقِعُ بِهِ الْبَشَرِيَّةُ جَمِيعًا بِمَحَبَّةٍ وَإِخَاءٍ . مَا زَالَتْ مَضَامِينُ كَلِمَاتِ السَّائِقِ تَتَرَدَّدُ فِي خَاطِرِي "نَعَمْ ، يَتَجَسَّدُ هَذَا السُّمُوُّ الْإِنْسَانِيُّ فِي مِدِينَةِ أَبْهَرَتِ الْعَالَمَ . وَتَرَبَّعَتْ عَلَى عَرْشِ الْمُدُنِ ، وَتَتَجَلَّ هَذِهِ الْأَبعَادُ الْإِنْسَانِيَّةُ فِي الْإِمَارَاتِ كُلِّهَا . السِّيَاحِيَّةُ ، فِي تَسْتَحِقُ الْزِيَارَةِ ! لِقَضَاءِ الْأَوْقَاتِ الْمُمُمْتَعَةِ حَيْثُ الْفَنَادِقُ وَالْمَطَاعِمُ وَالْحَدَائِقُ وَالْأَسْوَاقُ الْتِجَارِيَّةُ . الْمُنْتَشَرَةُ فِي ( دِبَرَ وَبَرَ دُبَي ) ، سَتَجَدُ فِي رُبُوعِهَا مَا يَسْرُكَ يَا صَدِيقِي . وَجَدْتُ نَفْسِي فِي حُجْرَتِي يَأْحَدُ الْفَنَادِقِ ؛ أَفْضَيْتُ لِيَتِي الْأُولَى فِي دُبَيِّ ، تَعُودُ ذَاكِرَتِي إِلَى مَقَاعِدِ الْدِرَاسَةِ الْثَانِيَّةِ فِي أَوْلَى سَيِّنَيَّاتِ الْقَرْنِ الْمَاضِي حِينَما يَتَهَادِي صَوْتُ مُعْلَمِ الْإِجْتِمَاعِيَّاتِ مُؤَكِّدًا بِأَنَّ مِدِينَةَ ( دُبَي ) مِنْ أَهْمِ الْمَحَطَّاتِ الْمُبَشِّرَةِ بِمُسْتَقْبَلٍ عَالَمِيٍّ عَلَى ضِفَافِ الْخَلِيجِ الْعَرَبِيِّ ، وَأَنَّ قِيَادَتِهَا تَعْمَلُ بِثَقَةٍ وَاقْتِدارٍ عَلَى بُذُوغِ نَجْمِهَا فِي الْمَحَافِلِ الْمَحَلِّيَّةِ وَالْإِقْلِيمِيَّةِ وَالْعَالَمِيَّةِ ، وَمَا زَالَتِ الْذِكْرِيُّ تُخَامِرُنِي عِنْدَمَا نَوَّهَ - أَسْتَاذُنَا - بِأَنَّ مَرْحَلَةَ التَّطَوُّرِ الْحَقِيقِيِّ وَالْمُتَنَامِيِّ تَدْرِجِيًّا قُدْ أَنْطَلَقَ وَبِوَتِرَةٍ عَالِيَّةٍ فِي الْعَامِ ١٩٥٩ تَرَامَنَا مَعَ الْيَوْمِ الْعَالَمِيِّ لِتَخْطِيطِ الْمُدُنِ الَّذِي يُصَادِفُ يَوْمَ الْتَّأْمِنِ مِنْ نُوفِقِبِرَ فِي كُلِّ عَامٍ . تَنْهَلُ الْذِكْرِيَّاتُ شَلَالًا مُتَدَفِّقًا وَأَنَا أَعْنِقُ أَمْوَاجَ الْخَلِيجِ ، كَانَتِ الْلَّيْلَةُ الْأُولَى فِي دُبَيِّ مَلِيلَةً بِالْفُكُورِ وَالْتَّأْمِلِ حَيْثُ سَأَعْمَلُ مَعْلَمًا لِلْغُلَمَانِ الْعَرَبِيَّةِ فِي وزَارَةِ الْتَّرْبَةِ وَالْتَّعْلِيمِ ، فِي صَيْبَحَةِ الْيَوْمِ الْتَّالِي تَعْرَفْتُ عَلَى تَفَاصِيلِ دُبَيِّ فِي رَائِعَةِ النَّهَارِ ، وَتُظْلِلُهُ قِيمُ الْوَنَامِ ، أَيْقَنْتُ وَأَنَا أَتَأْمَلُ مَعَالِمَ الْحَضَارَةِ الْمُبَثُوتَةِ فِي كُلِّ الْأَمَاكِنِ وَالْأَرْكَانِ ؛ أَنَّ تَحَدِّيَاتِ جَمَّةَ رَاقَفَتْ عَمَلَيَّاتِ الْإِنْجَازِ، ذَلَّتْ حِكْمَةُ الْمَعْفُورِ لَهُمَا - بِإِنْدَنِ اللَّهِ تَعَالَى - الشَّيْخُ زَايدُ بْنُ سُلْطَانِ أَلْ نَهَيَانِ ، وَالشَّيْخُ رَاشِدُ بْنُ سَعِيدِ أَلْ مَكْتُومَ - طَبَّبَ اللَّهُ ثَرَاهُمَا ، حِكْمَةُ حَوَّلَتِ التَّحَدِّيَاتِ إِلَى نَجَاحَاتٍ وَإِنجَازَاتٍ . أَجَدُ نَفْسِي بَعْدَ انْقِضَاءِ أَرْبَعَةِ عُقُودٍ ؛ أَعْنِقُ أَمْوَاجَهُ ، أَخْطُ بِقَلْمِي قِصَّةَ مَدِينَةِ أَحْبَبْتُهَا ، وَدَوَلَةٍ تَعَاقَبُ بِهَا شَغْفًا ، يَمْرُ بِخَاطِرِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ عَامِ ١٩٨٠ خِيطَ ذَكْرِيَّاتِ مُمْتَدِ ، أَتَمَنُ أَمَامِي مَنظُومَةً إِنْجَازَاتِ فِي شَتَّى الْمَيَادِينِ الْأَكَادِيمِيَّةِ وَالْبُنِيَّةِ التَّحتِيَّةِ وَالْإِفَاقِ الْإِقْتِصَادِيِّ وَالْإِجْتِمَاعِيِّ . فِي اِمْتِداَدِ إِنْسَانِيِّ مُتَنَاعِمٍ مَعَ الْعَالَمِ جَمِيعًا ، أَحَارُ ذَائِيَّ : كَيْفَ تَحَقَّقَتْ هَذِهِ الْطُّمُوحَاتِ ؟ وَتَكَلَّلتْ بِالنَّجَاحِ هَذِهِ الْإِنْجَازَاتِ فِي حِقْبَةِ زَمِينَيَّةِ قَصِيرَةٍ ، فَبُجِيَّبُ الْوَاقِعُ الْحَضَارِيُّ وَالضَّمِيرُ الْإِنْسَانِيُّ : بِوْجُودِ رُوَى طَمُوهَةٍ تُعَايِنُ التَّرِيَّا ، وَخَطَطِهَا الْعِلْمِيَّةُ ، لَدَى قِيَادَةٍ فَكِيَّمَةٍ أَمَنتُ بِالْقِيَمِ طَرِيقًا ، وَبِيَنَاءِ الْإِنْسَانِ دِيَدَنَا وَرَفِيقًا ، وَبِالْإِمْتِداَدِ الْإِنْسَانِيِّ صَدِيقًا ؛ فَتَسَامَتْ وَتَعَالَتْ فِي إِبَاءٍ وَشُمُوخٍ وَعَطَاءٍ ، فَعَانَقَتِ الْمَرِيَخَ ، بِأَطْبَافِهَا الْوَاقِعِيَّةِ ، وَانْتَمَاهَا لِلْإِنْسَانِ فِي مَعَالِمِ الْبَنِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّ وَفَقَقَ مَنْهَجِيَّةَ صَادِقَةً لَا تَعْرِفُ الْمُسْتَحِيلَ ، تَذَوَّلُ لِلْمَرْكَزِ الْأَوَّلِ وَتُجَمِّدُهُ أَخْلَاقًا وَعَمَلاً ، أَيْقُونَةُ الْعَالَمِ ، وَمَحَبَّةٍ وَتَسَامُحٍ وَبَنَاءً . أَعُودُ إِلَى صَفَّةِ مِيَاهِ الْخَلِيجِ ، تَرْتَفَعُ الْأَمْوَاجُ ؛ أَهْمَسُ فِي مِيَاهِهِ ، يَا خَلِيجُ عَلَى شَوَاطِئِكَ قِصَّةً حَضَارَةً بَنَاهَا الْإِنْسَانُ ، تَعْلُوْ أَصْوَاتُ الْأَمْوَاجِ ؛ وَمَاذا بَعْدُ ؟ يَمْتَزِجُ صَوْتُ حَنْجَرَتِي مَعَ الْأَمْوَاجِ الْعَالِيَّةِ ، يَرْدُ الصَّدِى : وَتَسْتَمِرُ الْحَكَايَاُ .